أثر القرآن الكريم والحديث النبوي في النثر العربي

تمهيد :

أولا: القرآن:

تعريف القرآن: يعرف المسلمون كتاب دينهم بأسماء عديدة جاء ذكرها في متنه تسمية من المولى عز وجل فقد سماه الفرقان والكتاب والنور والهدي والذكر والدين وغيرها تشريفا وتعظيما لمقامه ومكانه فكان دستورا لحياتهم وضابطا لتعاملاتهم «فلم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد أو عن خلقه للسموات والأرض أو عن البعث والنشور أو حين يشرع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين»[1]،

فكان وسيلة الرسول وحجته في مقارعة اليهود ومحاججة كهنتهم فإذا ما تلى منه آيات إلا ردد ما قاله الوليد بن المغيرة «والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق»[2].

فلغة القرآن تختلف عن لغة البلغاء وفصحاء العرب كما تباين قول الجن الذي عرفوه في كلام كهانهم أو ما يشابه أسجاعهم شعرا ونثرا «إنما هو نمط وحده فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ روحا وعذوبة إنما هو نمط باهر بل هو معجز ببيانه وبلاغته»[3]، تحداهما به الله ورسوله في أعز ما

(1).شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص30.

(2).المرجع نفسه، ص30.

(3).المرجع نفسه، ص30.

افتخر العربي به ألا وهي لغتهم العربية بأن يأتوا بسورة من مثله على شاكلة بلاغته فأعجزهم النطق والخوض في بيان لسانهم فبهت الذي كفر يقول عز وجل قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

نزل على رسوله منجما على مدار ثلاثة وعشرين عاما يذكر فيه الناس بقدرة الإعجاز الإلهي لغة وحكما ومعنى وأمر النبي والمسلمون بحفظه قبل تدوينه فسار الناس على أمر الله إلى أن تنبه عمر بن الخطاب إلى خطر ضياعه بعد حروب الردة واستشهاد عدد من حفظته فأمر أن يكتب على الجلود وجذوع النخل وغيرها ثم استأمن عائشة على حفظه وما أن استخلف عثمان عمر قام بنسخ جملة من النسخ الورقية من القرآن وتوزيعها على كبريات المقاطعات الإسلامية كالمدين ومكة والعراق وهكذا عرف تدوين القرآن اتساعا بين المسلمين ويدل على ذلك أن معاوية بن أبي سفيان في موقعة صفين مع علي كرم الله وجهه أمر ما يملك مصحفا أن يرفعه على السيوف طلبا للاحتكام.

مضمونه:

تنوعت محتويات القرآن الكريم وإن كانت وحدته في الهدف الذي يحمله فهو يمثل مشروعا حضاريا كاملا ينظم الحياة لبشرية بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية ويحمل كذلك مقومات المجتمع الجديد وصورة ملامحه وهي التي أعطت المثل وعلمت البشر أنه بالإمكان بناء دولة متكاملة العناصر صحيحة الأساس والقواعد في ثلاثة وعشرين عاما لتصل إلى بناء العقول وتغيير آليات التفكير لتجعل من بدوي يقتنع أنه خلق لحمل رسالة حضارية حولته وقومه من رعي الإبل إلى رعي الأمم على رأي الفاروق عمر بن الخطاب وسياقتها إلى مشروع لم تعهد واقعه رغم ما كانت عليه من تطور أجوف لا يهتم إلا بالشكليات.

والمتطلع على كتاب الله يجده يحمل من الأفكار والآليات التعبيرية ما يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام هي

1 العقائد: من أهم غايات القرآن الكريم وضع أصول الدين التي ينبني عليها ولذلك شملت عديد آي القرآن على تلك الأصول ومن أهمها التفصيل في حقيقة العبودية لله ما بين ما هو شائع وما يريده الإسلام في أمر الألوهية «فالاعتقاد بالله يكاد يكون عاما بين الشعوب فلا تخلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد بإله ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله تختلف اختلافا كبيرا بين الأمم»[1]، والإسلام يريد نزع غشاوة الاعتقاد الزائف في أمر الإله المعبود «فهو ليس إله قبيلة ولا إله أمة العرب وحدهم و لا إله الناس وحدهم بل هو إله كل شيء (رب العالمين) وكل شيء في الوجود مخلوق له وخاضع لأمره وكل شيء من مظاهر الكون فعنه صدر قد أحاط علمه بكل شيء و أحاطت قدرته بكل شيء»[2]، وهو إله واحد لكل شيء فليس للخير والشر والجمال والرياح آلهة خاصة أو لكل طائفة أو خليقة إله مستقل بل هو هو إله واحد بيده نواصي كل الموجودات ويقدر الأعمال والأرزاق لكل الكائنات.

وهكذا فصل في أركان الدين من إيمان وتصديق وصوم وصلاة وزكاة وحج وبين ما فيها من أصول وبنيان وقيم وارتباطات وممارسات وحكمة الالتزام بها في لغة يسرت التعامل معها وحددت المقاصد السامية من التزامها.

2 الأخلاق: قال رسول الله ص "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فالقرآن يحمل من الدعوة لالتزام محاسن الأخلاق وروافع السلوكات ما لم يشمله كتاب غيره أو ما يؤمن به شخص غير رسول الله محمد فقد سئلت عائشة عن خلق الرسول فردت: "كان قرآنا يمشي

(1).حنا الفاخوري، جامع الأدب العربي القديم، ص327.

(2).المرجع نفسه، ص327.

على الأرض" فلهذا تحمل عديد آيات القرآن مختلف الدعوة إلى التحلي بالأخلاق فلا تخلو سورة من سوره من دعوة لطيفة مباشرة أو إشارة جميلة لأخلاق أهل الجنة في دعوة مباشرة أو غير مباشرة في الترغيب لالتزامها والتحلي بها في الدنيا قبل الآخرة كما تشمل بعض الآيات ما يحمله المشركون من سوء الخلق وما تفعله تلك المثالب من أعمال نفسية غير سليمة كانت الغاية من ذكرها التنبيه إلى تجنبها لتجنب الإلحاق بأهلها ومن مجموع هذه الصفات الصبر والرضى والمحبة والإيثار وحب السلام والثقة بالله والصدق وحسن المعاملة والوفاء والتكافل الاجتماعي وغيرها من مكارم الأخلاق.

3القصص: من مشمولات القرآن الكريم وفي جزء هام من مجموعه ما كان من قصص الأنبياء وأقوامهم وبعض الصالحين ومواقفهم وأبرز تعاملاتهم كما جاء أيضا عدد من أخبار المشركين والمتكبرين وعلى عبادة الله وأخبارهم الحقة فقد جاء في القرآن من أخبار الأنبياء والرسل كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويونس وزكرياء ومريم ومن أخبار الصالحين كالخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين ومن العصاة المتجبرين كخبر فرعون وهامان وقارون وأبو لهب وزوجته وما كان من أعمالهم مما قربهم من الجنة أو النار وما كان من خبر ذلك إلا لتثبيت العقيدة والتخفيف على قلب الرسول وصحبه الأولين من جلال ما حملنه في رسالة الإسلام وإجابة عن أسئلة كان يهدف من ورائها السائل تعجيز الرسول (ص) .

وهكذا كان القرآن بما يحمله بين دفتيه من قول إنما كان يراد به شرح وتيسير مبادئ الدين وترسيخ العقيدة وتقديم المثل للإقناع بها والتعريف بأهداف مشروعيتها وفرضها وهي كذلك زاد معرفي وقرينة اقناعية تنساق لتوظيفها الألسن في سياقات تعبيرها الفكري على الطبيعة أو متى ما أعجزها الوصف والتعبير.

ثانيا الحديث الشريف:

وتتمثل في أقوال وأفعال وصفات الرسول (ص) وكل ما أقره من معاملات تفسر أحكام الدين وتبسط للخليقة قيمة وضوابط قناعاتها الدينية وأحكام التوجه العقائدي الجديد على حياتهم في شتى نواحي المعاملان ويكمن دور الحديث الشريف وأهميته في أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها «وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها فالقرآن مثلا لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ... وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها كما فصل القواعد والأسس التي يجب أتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها ... فهو الذي بين أحكام الشريعة وصورها عمليا كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التي جاء بها الرسول»[1]، ألم ترد عائشة عن سائلها عن خلق الرسول بأنه كان قرآنا يمشي" وبذلك كان مكملا للقرآن وخاصة حين تجمل أحكامه أو ينبهم المراد من معنى بعض آياته

تدوينه :

لقد عرف تدوين الحديث تذبذبا فقد توجه بالقول في مراتب النهي عن كتابة قوله وما ذاك إلا خشية أن يختلط بالقرآن أو يتخذه الناس بقداسة القرآن وأمره لذلك كان شديد الحرص على استيعابه وتجنب كتابته كما كان يتعامل مع زواره من خارج المدينة حين يطلبون توثيق بعض الأقوال خشية النسيان فيسمح لهم ويأمر بمن يكتب لهم ما يريدون نشرا للدين وتيسيرا لفهمه وإعانة في التذكير ومحاربة النسيان «ومما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دون في حياته وخاصة تلك التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبين لهم فرائض دينهم ... ورخص النبي في بعض الأحوال لنفر من

(1).شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص35.

الصحابة أن يكتبوا حديثه فقد أذن لرجل من الأنصار شكا إليه سوء حفظه لما يسمعه منه أن يستعين على حفظه بيمينه»[1]،

ومما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد رسول الله «أننا نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة في كتابته وطفق يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا، فترك كتابة السنن وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ... وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز فأمر أبا بكر الحزمي والي المدينة بتدوين سنة رسول الله وحديثه»[2]،

«وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره فعلى هديه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها وبحيث تجلى عن مغزاها مع الرصانة والحلاوة فهم معجم العرب اللغوي والأدبي الذي ساروا على هداه مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم ... وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نظمه فإنك تجد العبارة منه بل اللفظة حين تأتي في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضيء كأنها

(1).شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص37.

(2).المرجع نفسه، ص38.

الشهاب الساطع ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوم ألسنتهم ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد»[1].

أثر القرآن والحديث في النثر العربي

لا أحد قرأ القرآن الكريم أو اطلع على حديث الرسول (ص) إلا وقف مسحورا أمام أسلوبه البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية «فهو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره فتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة»[2].

ومن فضائل القرآن على اللغة والأدب العربي في مسارها الأدبي والعلمي أنه « وحد اللغة العربية وحفظها ووسع نطاقها وعمل على تليينها وتهذيبها ثم إنه كان أساس العلوم اللغوية والبيانية عند العرب وهو أبدا المثال الأعلى في البلاغة والفصاحة»[3].

ولعل من أعظم المكتسبات التي حققتها اللغة بفضل القرآن أنه جمع العرب على لهجة قريش وحقا كانت هذه اللهجة «تسود القبائل الشمالية في الجاهلية غير أن هذه السيادة لم تكن تامة فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالبا أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلا أو كثيرا حسب قربها من مكة أو بعدها فعمل القرآن على تقريب مابين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية وأخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل الجنوبية المتغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار أخذت لهجته تسود مشارق العالم الإسلامي ومغاربه... ما أتاح للهجة قريش الانتشار في العالم الإسلامي فحسب بل أن

(1).شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص34.

(2).المرجع نفسه، ص33.

(3).حنا الفاخوري، جامع الأدب العربي القديم، ص333.

تحفظ أيضا وتظل على مر العصور جديدة غضة لا تبلى مع الزمان بل أن تكتسح ما لقيت من لغات إذ اتخذتها شعوب لا حصر لها لسانها فأصبحت هي اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي فحلت من ألسنتهم محل لغتهم الأولى أصبحوا عربا يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم وكل ذلك بفضل القرآن الكريم»[1].

كما أن من عظائم أفضال القرآن «أنه حول العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر وبذلك أحل فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب إنما كانت مسألة دين جديد له مضمونه الذي لم يكن العرب يعرفونه»[2].

ومما قدمه للغة أنه دعا إلى عبادة الله «واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلق السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعي من عضات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من عبر ومن تقرير البعث والنشور وبسط صور الثواب والعقاب مستعينا في ذلك بالوجدانيات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغي أن يتهيأ لها من صواب الرأي وإنه ليترقى دائما من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان وفي خلال ذلك يشرع للناس ما ينبغي أن تكون عليه حياتهم من نظام في أسرهم وفي مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة»[3].

وبمرور الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم «وقد أخذوا

(1).شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص31.

(2).المرجع نفسه، ص32.

(3).المرجع نفسه، ص32.

يشتقون منه مباشرة علوما كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التي عرض لها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن يصور ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامة وخاصة مما هيأ لظهور علوم البلاغة ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته فهو الذي هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية»[1]،

أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب فأقامها في الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة «ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوب المحكم بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذي يلذ الآذان حين تستمع لهو الأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغي إليه هذا الأسلوب الذي يميز عربيتنا»[2]،

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره فعلى هديه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات «بحيث تحيط بمعناها وبحيث تجلى عن مغزاها مع الرصانة والحلاوة فهم معجم العرب اللغوي والأدبي الذي ساروا على هداه مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصرهم ... وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نظمه فإنك تجد العبارة منه بل اللفظة حين تأتي في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضيء كأنها الشهاب الساطع ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوم ألسنتهم ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد»[3].

(1).شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص32.

(2).المرجع نفسه، ص33.

(3).المرجع نفسه، ص34.